مجلة دراسات في اللّغة العربيّة وآدابها ، فصليّة محكّمة ، العدد ٢، صيف ١٣٨٩ هـــ ش ، ٢٠١٠ م

الظواهر الصوتية عند سيبويه

د. إبراهيم محمّد البب*

الملخّص

يتناول هذا البحث عدداً من الظّواهر الصّوتيّة الّتي وقف عليها سيبويه في الكتاب، وهي ظواهر تتأرجح بين الصّوت والسّياق، إلاّ أنّ تصنيفها صوتيّاً أقرب من تصنيفها سياقيّاً. وتضم الظّواهر التّالية:

ظاهرة الوقف: وقد بيّنّا فيه أسسه، وقوانينه، وقواعده، وأنواعه عند سيبويه. سواءٌ أكان ذلك بزيادة حرف أم بغير زيادة؛ ومع أحرف العلّة أم مع غيرها من الأحرف الصّامتة.

ظاهرة الإمالة: وقد تمّ تصنيفها بناءً على معطيات سيبويه إلى: مطّردة وشاذّة. ثمّ بيّنّا مواضعها في الكلام وصلتها بحروف العلّة من جهة، وبحرف الرّاء في العربيّة من جهة أخرى. وقد خصصناه بالحديث لأنّه تمتنع معه الإمالة في مواضع، وتطّرد معه في مواضع أخرى، وذلك وفقاً لقوانين صوتيّة محدّدة في الكتاب.

ظاهرتا الإعلال والإبدال: وهما من الظّواهر الصّوتيّة المهمّة في تراثنا اللغويّ نحويّاً كان أم غير نحويّ. وقد وقفنا فيهما على أنواع الإعلال المختصّ بأحرف العلّة (الألف , والواو، والياء). ثمّ وضّحنا الفرق بينه وبين الإبدال الّذي تعدّدت حروفه، واختلفت أشكاله عند سيبويه.
ظاهرتا المماثلة والمخالفة: وهما ظاهرتان صوتيّتان لهما أسسهما وقوانينهما الخاصّة. ولكنّ سيبويه لم يفرد لأيٍّ منهما عنواناً خاصّاً، وإنّما درسهما تحت عنوان الإبدال. فتناول المماثلة الكلّيّة والجزئيّة كلاًّ بنوعيه: التّقدّميّ والرجعيّ. كما تناول المخالفة، والفرق بينها وبين المماثلة، فرأى أنّ ما تماثل من الحروف هو أكثر بكثير ممّا تخالف منها في الكلمة الواحدة.
وأخيراً بيّنّا في الخاتمة مجموعة من النتائج الّتي توصّل إليها البحث.

كلمات مفتاحيّة: الأصوات، الظّواهر الصّوتيّة، سيبويه .

المقدّمة:

يعدُّ كتاب سيبويه المصدر الأوّل للباحثين اللغويين والمرجع الفـــصل في قضـــايا

* أستاذ مساعد في قسم اللغة العربيّة ، كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة تشرين ، اللاذقية ، سورية.

العربيّة بشكل عام. وهو أيضاً مكتبةٌ لغويّة شاملة. ضمَّ إلى جانب النّحو والصّرف كثيراً من المسائل المتعلّقة بالشّعر، والأمثال، واللهجات، والأصوات وغيرها. وقد تناول مؤلّفُهُ جُلَّ قضاياه تناولاً وصفيّاً دقيقاً، إذ كان يذكر القضيّة ثمّ يبيّن كيف تُعاملُ رسماً ولفظاً، من خلال الإكثار من الأمثلة الّتي تساعد على فهم ما يريده. ولم يكن الّذين جاؤوا بعده مختلفين عنه كثيراً في تناولهم للنّحو والصّرف. لأنّ جلّهم بقي يدور في فلكه شارحاً عبارته كما هي حيناً، ومضيفاً إليها ما يُعين على إيضاحها حيناً آخر. ولكنّ مدار الخلاف بينه وبينهم يكمن في قضايا اللغة، ولاسيّما الظّواهر الصّوتيّة منها. فقد تناولها تناولاً بعيداً عن التّبويب أو المنهج في جلّ أماكنه .فجاءت مبثوثة متناثرة تحت عناوينها حينا، وتحت عناوين مختلفة حيناً آخر. ولا غرابة في ذلك، لأنّ الكتاب كما هو معروف يفتقر إلى منهجٍ تصنيفيٍّ يعين القارئ على الوصول إلى ما يريده. وسيقف البحث عند تلك الظّواهر المتناثرة، محاولاً رصدها وتبويبها وتقعيدها تقعيداً منسجما مع دارسيها المعاصرين. مجملاً هذا الوقوف عند الظّواهر التّالية: الوقف، والإمالة، والإعلال، والإبدال، والمخالفة، والمماثلة. تلك الظّواهر الّتي لم تحظَ كثيراً باهتمام الباحثين.

منهج البحث:

من يقرأ كتاب سيبويه يدرك من الصّفحات الأولى أنّ لبساً ما يعتريه، ولا سيّما الظّواهر الصّوتية فيه. ولا يعود هذا اللبس إلى حجم المادّة ووفرتها، وإنّما إلى التّصنيف والمنهج والتّبويب والتّرتيب. فمنهج الكتاب يبقى لُغزاً عصيّاً على الإدراك، ومصطلحاته عسيرة المنال مفتوحة الدّلالة. فأحياناً يصرّح بالظّاهرة الصّوتيّة، وأحياناً يتركها على إطلاقها. لكنّ ظواهره متنوعة اللهجات، متعدّدة التّمثيل. وبناء على المادّة المدروسة فسوف يكون المنهج الوصفيّ هو المتوخّى. محاولين في بحثنا تصنيف المادّة، وتبويبها، وإدراجها ضمن قواعد ميسّرة تمكّن من العودة إليها والإفادة منها. ونظراً لطبيعة المادة في الكتاب فإنّ الإحالات ستكون أحياناً إجماليّة، لأنّ سيبويه كان يستطرد كثيراً في كلامه. إذ كان يتحدّث عنها في مكانٍ ما، وتحت عنوانٍ محدّد؛ ثمّ

يعود إلى الحديث عنها في مكان آخر لا صلة لعنوانه بها. وقد يتحدّث عن حرفٍ ما في أبواب مختلفة، ومواضع متباينة.

أولاً – ظاهرة الوقف :

يقع المقطع الأخير من المصرع، أو من البيت الشعري، أو من الجملة النثرية، أو من جزء منها موقعاً خاصاً يدعى "الوقف". وهو مما يشترك فيه الاسم والفعل والحرف(١). وقد درس سيبويه هذه الظاهرة دراسة مطوّلة ومتشعبة، وجعلها ضمن دراساته الصوتية والصرفيّة والنّحوية خالية من التبويب والترتيب، فجاءت في أجزاء الكتاب في الأبواب التي عقدها لهذه الظاهرة، وفي أبواب أخرى، ليس المقصود منها شيئاً من الوقف. ويمكن أن نميز نوعين من الوقف عنده:

أ ــ الوقف بزيادة صوت :

١ــ زيادة الهاء: تزاد الهاء التي يسميها سيبويه "هاء السكت" في آخر الكلمة عند الوقف، ويُراد من هذه الزيادة إثبات حركة الحرف المتحرك في آخر الكلمة.

ويكون ذلك في الفعل المعتل الآخر، نحو: ارمِهْ، ولم يغزُهْ، واخشَهْ، ولم يقضِهْ، وفي اللفيف المفروق، نحو: إن تَعِ أعِهْ، ولا تَعِهْ؛ وذلك لذهاب حرفين منه. وقد تبدل حركة عين الفعل فتقلب كسرة، نحو: ادعِهْ من دعا يدعو؛ وذلك لتوهم بعض العرب أن حركة العين ساكنة في موضع الجزم، وهي لغة رديئة وغلط(٢).

وتزاد الهاء أيضاً بعد نون المثنى والجمع والتوكيد، نحو: هما ضاربانِهْ، وهم قاتلونَهْ، وضربتُنَّهْ، وذهبتُنَّهْ؛ كي لا يلتقي ساكنان عند الوقف. وتزاد بعد الميم في قولهم: ثُمَّهْ، وهَلُمَّهْ. كما تزاد فيما انتهى بحرف قبله ساكن، نحو: كيْفَهْ، وليْتَهْ، ولعلَّهْ، وانطلقْتُهْ في: انطلقت، وإنَّه في: إنَّ(٣).

وتزاد الهاء لبيان حركة الحرف الأخير وإن تحرك ما قبله، نحو: هذا غلامِيَهْ، وجاء

١ــ انظر شرح المفصّل لابن يعيش، عالم الكتب بيروت، مكتبة المتنبّي القاهرة، ٩: ٦٧ .

٢ــ انظر: الكتاب لسيبويه، تحقيق عبد السّلام هارون، عالم الكتب بيروت، ٤: ١٥٩، ١٦٠ وهذه الهاءات للوقف وليست ضمائر.

٣ــ نفسه ٤: ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦.

من بعديَهْ، وإنَّهُ ضربَنِيَهْ، وهِيَهْ في هي، وهوَهْ في هوَ، وخذه بِحِكْمِكَهْ .

وتزاد الهاء لتدل على حرف محذوف، نحو علامَهْ، وفيمَهْ، ولِمَهْ، وبِمَهْ، وحتّامَهْ؛ في: علامَ وفيمَ ولِمَ وبِمَ وحتامَ الاستفهامية[٤].

وتزاد الهاء بعد الألف الخفيّة لبيانها، نحو هؤلاه، وهناه. وبعد ألف الندبة ويائها وواوها؛ لأن ذلك موضع تصويت وتبيين كما يقول سيبويه، نحو: يا غلاماهْ، وواغلامَهُوهْ[٥].

وتزاد في الوقف على المنادى المرخم لتدل على المحذوف، كالترخيم في: يا سلَمَهْ، ويا طلحَهْ[٦]. والترخيم في خمسة عشر، إذ نبيّن الهاء في الوقف فنقول يا خمسَهْ [٧].

وقد تكون هذه الهاء بدلاً من التاء التي تلحق الاسم للتأنيث؛ فإن وصل هذا الاسم كانت علامة التأنيث فيه التاء، وإن وُقِفَ عليه لحقته الهاء، نحو: هذه تمرَهْ وطلحَهْ. أما إذا لم تكن التاء للتأنيث فإنه لا يوقف بالهاء، كالتاء الملحقة في أخت وبنت[٨].

٢ــ الوقف بزيادة غير الهاء : ويكون بزيادة الألف في حالة النصب في الوقف على التنوين، كي لا يلتبس التنوين بالنون، نحو: رأيت زيدا [٩]، وكزيادتها في نحو قول العرب: حيَّهلا في حيَّهل، فإذا وصلوا قالوا: حيّهل بعُمَرَ[١٠]. ويكون أيضاً بمد الحركة وإشباعها كقولهم: أنا، إذ الأصل كما يرى سيبويه هو "أنَ"[١١].

ومن العرب من يلحق السين بضمير الكاف المتصل الذي يدل على المؤنث، فيقول: أعطيتُكِسْ، وأكرمُكِسْ، في الوقف على أعطيتكِ وأُكرمُك، وبعضهم يُلحق الشين، فيقول: أعطيتكشْ، وأكرمكشْ في أعطيتك وأكرمك. وهناك من يُلحق بهذه الكاف ألفاً

٤ــ نفسه ٤: ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦.

٥ــ الكتاب ٤: ١٦٥ – ١٦٦ .

٦ــ انظر: الكتاب ٢: ٢٤٢ .

٧ــ نفسه ٢: ٢٦٨.

٨ــ الكتاب ٤:١٦٦.

٩ ــ الكتاب ٤:١٦٦.

١٠ــ نفسه، ٤:١٦٣ــ١٦٤.

١١ ــ نفسه .

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

في المذكر، وياء في المؤنث؛ وذلك إذا وقعت بعد هذه الكاف هاء الإضمار، فيقول: أُعْطِيكاهُ، وأُعطيكاها في الوقف على أُعْطِيكَهُ وأُعْطِيكها، وأُعْطِيكيها، وأُعْطِيكيه في الوقف على أُعطيكِها وأُعطيكِهُ. ويروي سيبويه عن الخليل أن هناك من يقول: ضَرَبْتِيهِ في ضربْتِهِ، وهو قليل[١٢].

ب ــ الوقف بغير زيادة :

١ــ الوقف على آخر الكلمة المتحركة في الوصل[١٣]: ويكون ذلك بأربعة أوجه:

أــ الإشمام: "... وهو تهيئة العضو للنطق بالضم من غير تصويت، وذلك بأن تَضُمَّ شفتيك بعد الإسكان، وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج منه النفس، فيراهما المخاطب مضمومتين ..."[١٤]، فيعلم أن المراد بضمهما هو الحركة. وعلامته نقطة فوق الحرف، نحو: هذا خالدْ، وهذا فرجْ، وهو يجعلْ، ولا يكون الإشمام إلا في المرفوع بالضّمّ، أما النصب والجر فلا إشمام فيهما.

ب ــ الرّوم: وهو صوت ضعيف نروم به الحركة، ونختلسها اختلاساً، ولا نُتِمُّها. وعلامته خطّ بين يدي الحرف[١٥]، ويكون في الرفع والنصب والجر، نحو: هذا عُمَرْ~، ورأيت الحارثْ~، ومررت بخالدْ.

ت ــ التّسكين أو عدم الإشمام: وهو الذي يسمّيه سيبويه ما أُجري مجرى الساكن والمجزوم، وهو الأصل في الوقف والأغلب والأكثر استخداماً. والمراد به سلب حركة الحرف، وعلامته خاء فوق الحرف الذي نقف عليه[١٦]. ويكون في الرفع والنصب والجر، نحو: هو يجعلْ ، ورأيت الحارثْ ، ومررت بخالدْ.

ث ــ التضعيف: ويُراد بِهِ تضعيف الحرف الموقوف عليه؛ بزيادته حرفاً مثله، فيصير كالإدغام. وهذا التضعيف من زيادات الوقف؛ لأنه يُحرَّك عند وصل

---

١٢ ــ انظر: الكتاب ١٩٩:٤ــ٢٠٠.

١٣ ــ انظر: الكتاب ١٦٨:٤ــ١٧٢. والمقصود بذلك الوقف على الحرف الذي يحمل حركة إعرابية .

١٤ ــ شرح المفصل، ٦٧:٩.

١٥ ــ نفسه، ٦٧:٩ــ٦٨.

١٦ ــ نفسه .

الكلام[١٧]. وعلامته الشين فوق الحرف المضعف، ويكون في الرفع والنصب والجر، نحو: هذا فرجْ ، ورأيت أحمدْ ، ومررت بخالدْ ، ولا يقع التضعيف فيما كان قبله حرفٌ ساكن، نحو: عَمْرٍو، وزيْدٍ.

وقد جعل سيبويه الخاء لما أُجري مُجرى الساكن أو المجزوم؛ لأنها أول كلمة خفيف، فدلّ بها على السكون لأنه تخفيف، وجعل حرف الشين للتضعيف؛ لأنه أول كلمة شديد، فدل به عليه لأنه مشدد، وجعل النقطة للإشمام، والخط للروم؛ لأنّ الإشمام أضعف من الروم والنقطة أنقص من الخط[١٨]. وأظنّ أنّ هذه الحروف الّتي جُعِلَت ضوابط فوق الحرف دليل على كميّة الهواء المحبوس في الرّئتين.

٢ــ الوقف على الهمزة: إذا كان الحرف مهموزاً مسبوقاً بساكن وُقِفَ عليه بالإشمام أو بالروم أو بالسكون والجزم، نحو: هو الخبْ ءْ والخب ءْ والخب ءْ . ويوقف عليه أيضاً بإلقاء حركة الهمزة على الساكن قبلها، نحو: هو الوثُؤْ، ومِنَ الوثِئْ، ورأيت الوثَأْ، وهو البُطُؤْ، ومِنَ البُطِئْ، ورأيت البُطَأْ[١٩]. وبعض العرب يحذف الهمزة في الوقف ولا يحققها؛ بل يجعلها واواً أو ياءً أو ألفاً، نحو: هذا هو الكَلَو، ورأيت الكلاَ، ومن الكَلَي[٢٠]. والوقف على الهمزة ممّا يحمل حركة إعرابيّة.

٣ــ الوقف بنقل الحركة: ويكون فيما حمل حركة إعرابية وفي غيره: فإذا كان قبل آخر حرف في الكلمة حرفٌ ساكن نقلنا حركة الحرف الأخير إليه وسكّنّاه، كي لا يلتقي ساكنان، ويكون ذلك في الرّفع والجرّ فقط، نحو: هذا بَكُرْ، ومِن بَكِرْ، ولا يكون في المنصوب، إذ لم يقولوا: رأيت البَكَرْ[٢١]. وقد يكون هذا النقل بإتباع الحركة، كقولهم: هذا عِدِلْ وفِسِلْ في "عِدْلٌ وفِسْلٌ"، أتبعوا حركة الحرف قبل الأخير (دْ، سْ) حركة الحرف الأول(عِ، فِ)؛ لأنّه ليس في كلامهم فِعُل. وكذلك قالوا مِنَ البُطُؤ لأنه

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

١٧ ــ نفسه .
١٨ــ انظر: شرح المفصل ٩: ٦٧، ٦٨ ...
١٩ــ انظر: الكتاب ٤:١٧٧ .
٢٠ــ نفسه ٤: ١٧٩
٢١ــ الكتاب ٤: ١٧٣

ليس في الأسماء وزن فُعِل، وقياس ذلك كله: هذا عِدْلٌ، وفِسْلٌ، ومِنَ البُطِئ[٢٢].

ومما يوقف عليه بنقل الحركة باب سمّاه سيبويه "باب الساكن، الذي تحركه في الوقف، إذا كان بعده هاء المذكر، الذي هو علامة الإضمار، ليكون أبين لها كما أردت ذلك في الهمزة "[٢٣]، نحو: ضَرَبَتُهْ، واضربُهْ، وقَدُهْ، ومِنُهْ في ضَرَبَتْهُ، واضربْهُ، وقَدْهُ، ومِنْهُ. حيث حُرِّك الساكن بإلقاء حركة الهاء عليه. ويقول بعض بني عدي في ضَرَبَتْهُ وأخذَتْهُ: قد ضَرَبَتِهْ، وأَخَذَتِهْ، بتسكين الهاء وتحريك ما قبلها كي لا يلتقي ساكنان.

٤ــ الوقف على حروف المد واللين إن كانت حروف إعراب أو لم تكن :

إن الواو والياء والألف حروف غير مهموسة، ومخارجها متسعة لهواء الصوت، فلا يصحّ أن نضمَّها بالشفة أو اللسان أو الحلق بل نجعل الصوت يهوي معها حتى ينقطع آخره في مخرج الهمزة .

ولكنّ هذه الحروف ليست على استقرارها واطّرادها بهذا الشكل لدى جميع العرب، فقد يوقف عليها بإبدال حرف منها مكان آخر كقولهم في أفعى: هذه أفعَيْ، وفي حبلى: هذه حُبلَيْ، وهي لغة قليلة الاستعمال تكلّمت بها قبيلتا فزارة وقيس، والصواب فيها كما يرى سيبويه أن تترك الألف في الوقف ولا تبدلها ياءً، وبعض العرب يقول أفْعَو بإبدالها واواً لأنها أبين من الياء[٢٤].

وهناك من يجعل الجيم مكان الياء في الوقف؛ لأن الياء حرف خَفيّ، والجيم حرف أبين منه، نحو: هذا تميمجّ في تميميّ، وعلجّ في عليّ [٢٥]، وسَعْدِجّ في سَعْدِيّ[٢٦].

وتحذف من آخر الأسماء ــ عند الوقف ــ الياء المحذوفة في الوصل، نحو: هذا قاضْ وغازْ في قاضٍ وغازٍ. وتحذف الــياء أيضاً في الفواصل والقوافي[٢٧]، كقوله

٢٢ــ نفسه ٤: ١٧٣، ١٧٧.

٢٣ــ نفسه ٤: ١٧٩. وانظر أيضاً ص١٨٠، ١٨١.

٢٤ــ انظر: الكتاب، ٤:١٨١، ١٨٢.

٢٥ــ نفسه ٤: ١٨٢ .

٢٦ــ نفسه، ٢:٤٢٢.

٢٧ــ انظر: الكتاب : ٤:١٨٥ .

تعالى:«وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ»[٢٨]، و«مَا كُنَّا نَبْغِ»[٢٩]، و«يَوْمَ التَّنَادِ»[٣٠]. والمقصود بالفواصل رؤوس الآيات، ومقاطع الكلام .

وتحذف الياء أيضاً إذا لم تكن محذوفة في الوصل ولا يلحق بها التنوين، نحو: هذا غلامْ في غلامي، وقد أسقان في أسقاني عند الوقف[٣١]. وترك الحذف في كل هذا أكثر قياساً واطراداً .

ولا تحذف هذه الياء إذا كانت في اسم منقوص منصوب أو في فعل نحو رأيت قاضياً، ولا أقضي، وهو يغزو، ويرمي، ولكنهم قالوا لا أدْرِ بالحذف عند الوقف؛ لأنّه كثر في كلامهم[٣٢].

ويمتنع حذف هذه الياء إذا كان قبلها ساكن، نحو: هذا قاضيَّ، وهذان غلامايَ، ورأيت غُلامَيَّ، وإذا لم تكن في الوقف نحو: هذا غلاميَ فاعلم. ولا تحذف الألف التي تذهب في الوصل نحو: رُضَا، ونُهَا[٣٣].

٥ــ الوقف على بعض الحروف الخاصة [٣٤]:

وهي حروف القلقلة، والحروف المهموسة، والحروف المشربة كما يسميها سيبويه. ويكون الوقف عليها إما بالضغط، وإما بالنفخة. أما الضغط فيكون مع حروف القلقلة (ق، ط، ب، ج، د) فالوقوف معها لا يكون إلا بالصُّويت لشدة ضغط الحرف، نحو: الحِذْقْ. وأما النفخة فتكون مع الحروف المهموسة كلِّها، ومع الحروف (ز، ظ، ذ، ض) المشربة. فإذا وقفنا عندها خرجت معها نفخة، ولم تُضْغَط كالحروف السابقة، وينسل آخر الصوت من بين الثنايا فيجد منفذاً له نحو: هذا نَشُزْ، وهذا خَفُضْ.

وهناك حروف لا يسمع معها التصويت، ولا تجد منفذاً لها من بين الثنايا، وهي

٢٨ــ الفجر ٤

٢٩ــ الكهف ٦٤

٣٠ــ غافر ٣٢

٣١ نفسه ٤: ١٨٦.

٣٢ــ نفسه ٤: ١٨٤ .

٣٣ــ انظر: الكتاب : ٤: ١٨٧ .

٣٤ــ انظر: الكتاب ٤:١٧٤ وما بعدها .

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

(ل، ن، م، ع، غ، ء). ويقول فيها سيبويه: "ومنها حروف مُشربة لا تسمع بعدها في الوقف شيئاً مما ذكرنا؛ لأنها لم تُضْغَط ضغط القاف، ولا تجد منفذاً كما وُجِدَ في الحروف الأربعة ..."[٣٥].

٦ــ الوقف بإبدال حرف مكان آخر :

ويُفهم هذا النوع من الوقف؛ من الباب الذي سمّاه سيبويه: "هذا باب الكاف التي هي علامة المضمر"[٣٦] فالكاف التي هي ضمير متصل مكسورة في المؤنث ومفتوحة في المذكر، نحو: رأيتكِ ورأيتكَ.

ولكن بعض تميم وأسد يجعل مكان الكاف في المؤنث شيئاً للبيان والوقف؛ لأن هذه الكاف تسكن عند الوقف، فأرادوا بيانها كي لا يلتبس المذكر بالمؤنث، وفصلوا بينهما بالشين كما فصلوا بالنون، عند قولهم: ذهبوا، وذهبْنَ، وجعلوا مكان الكاف المهموسة حرفاً مهموساً مثلها هو الشين؛ لأنه أقرب ما يشبهها، فقالوا: إنَّشِ ذاهبةٌ، ومالش ذاهبةً، في إنك ذاهبة، ومالك ذاهبة .

٧ــ الوقف على نون التوكيد:[٣٧]

النون الخفيفة: إذا كان ما قبلها مفتوحاً نجعل مكانها ألفاً، نحو: اضربَا في اضربَنْ (الأمر من المفرد) أما إذا كان ما قبلها مكسوراً أو مضموماً فلا نجعل مكانها ياءً ولا واواً في الوقف، نحو: اخشَيْ، واخشَوْا، ونحن نقصد النون الخفيفة. ولكن يونس يذهب إلى زيادة الياء والواو بدلاً منها فيقول: اخشَيِيْ، واخشَوُوا. وإذا وقعت في فعل مضارع مرفوع تحذف وتحلّ محلّها نون الرفع الّتي يوقف عليها بالسّكون، نحو: تضربينْ، وهل تضربونْ، وهل تضربانْ، ولا تقول: هل تضربونا (في الوقف) .

النون الثقيلة: لا تتغير في الوقف، وتبقى الألف التي قبلها في فعل الاثنين، نحو: لا تفعلانِّ ذلك.

٣٥ــ نفسه ٤:١٧٥ والمقصود بالحروف الأربعة هي الحروف المشربة .

٣٦ــ انظر: الكتاب، ٤:١٩٩.

٣٧ــ انظر: نفسه .٣:٥٢١ــ٥٢٧.

٨ــ الوقف على قوافي الشعر:

ومما يتّصل بظاهرة الوقف ما درسه سيبويه تحت عنوان " هذا باب وجوه القوافي في الإنشاد"[٣٨]، وهو يريد بذلك نوعاً من أنواع الوقف سمّاه بالتّرنُّم. ويمكن دراسة الوقف هنا من النّاحيتين التّاليتين:

الأولى: الإنشاد مع الترنُّم: ويراد به مَدّ الصوت، وإشباع الحركة وإلحاق الألف والياء والواو بما يُنوّن وما لا ينوّن. وتُلحق هذه المدّة بحروف الروي؛ لأن الشعر وضع للغناء والترنم، فمما ذكره سيبويه من المنوّن الذي مدّوا صوته، قول امرئ القيس :

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلي بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ

وقول يزيد بن الطثريَّة :

فَبِتْنا تَحيدُ الوَحْشُ عنَّا كأننا قتيلان لم يَعلمْ لنا الناسُ مَصرعا

وقول الأعشى :

هريرةَ ودِّعْها وإنْ لامَ لائمو غداةَ غدٍ أم أنت للبين واجمُ

فقد مُدّ الصوت في "منزلِ" إلى "منزلي"، وفي "مصرعاً" إلى "مصرعا"، وفي "لائمٌ" إلى "لائمو"؛ للترنم في الإنشاد.

ومما هو غير منون، ومُدّ صوتُه؛ قول جرير :

أقلّي اللومَ عاذلَ والعِتابا وقولي إنْ أصبتُ لقد أصابا

وقوله أيضاً :

متى كانَ الخِيامُ بذي طلوحٍ سُقيتِ الغيثَ أيتها الخيامو

وقوله كذلك :

أَيْهاتَ منزلُنا بنَعفِ سُوَيْقةٍ كانت مباركةً مِن الأيامي

فالأصل فيها: "العتابَ "، و"الخيامُ" و"الأيامِ".

الثانية: الإنشاد مع عدم الترنم: والعرب على خلاف فيه :

فالحجازيون يتركون هذه القوافي – منونة وغير منونة – كما هي في الترنم، وقسم من بني تميم يبدلون مكان المَدَّة نوناً، كقول رؤبة :

٣٨ــ انظر الكتاب ٢٠٤:٤ــ٢١٦.

يا أبتا علّك أو عَساكَنْ

وقول العجاج :

يا صاحِ ما هاجَ الدُّموعَ الذّرّفَنْ

وقوله :

مِن طلل كالألحَمي أنْهَجَنْ

ومن العرب فريق ثالث، أجروا القوافي مُجرى الكلام النثري، فلم يترنموا، وتركوا المدَّة، ووقفوا على السكون في قول جرير: "أقلّي اللومَ عاذلَ والعِتابْ"، "بالسكون"، وقول الأخطل:

دَعِ المُعَمّرَ لا تسْألْ بمصرعِهِ واسألْ بمَصْقَلَةَ البَكْرِيِّ ما فَعَلْ

بحذف الألف من "فَعَلا" لأنه لم يرد الترنم ولا مدّ الصوت .

كما وقفوا على حذف لام القافية: إذا كانت ياءً أو واواً، وحرف الروي قبلهما. كقول زهير :

وأراكَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وبعـ ـضُ القومِ يخلُقُ ثم لا يَفْرْ

وهو يريد: لا يفري .

وكذلك يغزو، فلو كانت قافية لجاز فيها الحذف عند الوقف، ولقيل: يَغْزْ. أما إذا كانت اللام ألفاً فلا تحذف نحو: يخشَى، ويرضَى .

وتحذف واو الجماعة إذا لم يُرَدِ الترنم، كقول تميم بن مُقبل :

لا يُبعِدُ اللهُ أصحاباً تركتُهُمُ لم أدْرِ بعْدَ غداةِ البَيْنِ ما صَنَعْ

يريد: صنعوا. وقوله :

طافت بأَعْلاقِهِ خَوْدٌ يمانيةٌ تدعُو العرانِينَ مِن بكْرٍ وما جَمَعْ

يريد: جمعوا. وتحذف الياء أيضاً في غير الترنُّم، كقول عنترة العبسي :

يا دار عبلة بالجواء تكلَّمْ وعِمِي صباحاً دارَ عبلةَ واسْلَمي

يريد: تكلّمي .

وإذا كانت القافية ساكنة، واحتاجوا لتحريكها في الوصل؛ حركوها بالكسر، كقول امرئ القيس :

أغَرَّكِ مِنّي أنَّ حبَّكِ قاتلي وأنَّكِ مهما تأمُرِي القلبَ يفعَلِ

وقول طرفة :

متى تأتِنا نَصْبَحكَ كأساً رَوِيَّةً وإن كُنْتَ عنها غانياً فاغْنَ وازْدَدِ

وتمدّ الحركة بإشباعها إذا لم يكن وقف. كقول بعض العرب قالا في: قالَ، إذا لم يُرِد أن يقطع كلامه، ويقولو في: يقول، ومِنَ العامِي في: مِنَ العامِ .

وقد يوقف على القافية بإثقال الكلمة وتضعيفها، نحو: سبسبًّا وكلكلاّ في: السبسب والكلكل، وقال رؤبة: ضَخْمٌ يُحِبُّ الخُلُقَ الأضْخَمَّا [٣٩] في : "الأضخم"

وقال منظور بن مَرثِد الفقعسيّ الأسديّ: ببازلٍ وَجناءَ أو عَيهَلِّ [٤٠] في: "عَيْهَلِ".

ثانياًــ ظاهرة الإمالة :

الإمالة مصدر للفعل أمال يُميل، والميل الانحراف عن القصد. وهي في اللغة "...عُدولٌ بالألف عن استوائه، وجنوح به إلى الياء، فيصير مخرجه بين مخرج الألف المفخّمة وبين مخرج الياء، وبحسب قرب ذلك الموضع من الياء تكون شدة الإمالة، وبحسب بعده تكون خفّتها، والتفخيم هو الأصل، والإمالة طارئة ..."[٤١].

وقد درس سيبويه هذه الظاهرة، وجعلها عماداً لدراساته الصوتية والصرفية، ولكن دراسته لها كانت تفصيلاً في اختلاف اللهجات في الألف الممالة، لا تعقيداً أو تبويباً لها. فهو يرى أن العرب مختلفون في الإمالة، فمنهم من أمال، وهم تميم وأسد وقيس وعامة أهل نجد، ومنهم من لم يُمِلْ إلا في مواضع قليلة، وهم أهل الحجاز، ومنهم من يميل في موضع، ولا يميل في آخر. ويمكن تصنيف موقفه من الإمالة على النحو التالي :

١ــ الإمالة المطردة : ويمكن أن ندعوها قياسية، وتحدث عنها سيبويه في بابين اثنين: الأول "باب ما تمال فيه الألفات"[٤٢]، والثاني "باب من إمالة الألف، يميلها فيه ناس من العرب كثير"[٤٣]. ففي الباب الأول يتحدث عن الإمالة حديثاً مطولاً ومتشعباً، يغلب

٣٩ــ انظر: الكتاب ١:٢٩.

٤٠ــ انظر: الكتاب ٤:١٧٠.

٤١ــ شرح المفصل ٩:٥٤. وسوف نرمز لصوت الإمالة بكسرة تحت الحرف الواقع قبل الحرف المُمال.

٤٢ــ الكتاب، ٤:١١٧ .

٤٣ــ نفسه ٤: ١٢٣.

عليه الاستطراد وعدم التبويب، ويمكن إجمال قواعده في هذا الباب عن الإمالة على النحو التالي :

ــ تمال الألف إذا كان بعدها حرف حُرّكَ بالكسرة، نحو: عِابِد، وعِالِم، ومسِاجِد .

ــ وتمال الألف إذا كان الحرف الأول من الكلمة مكسوراً، وفُصِل بينه وبين الألف بحرف واحد فقط، نحو :عِمِاد.

ــ وتمال الألف إذا كان بين أول حرف من الكلمة وبين الألف حرفان، الأول منهما ساكن، نحو: سِرْبِال، وشِمْلِال، وكَيِّال، وشَيبِان، وعَيلِان، وغَيلِان، وعَجْلِانك .

ــ وتمال فيما انتهى بياء أو واو وكان مفتوح العين، نحو: مَعْدِيّ، ومسنيّ، والعُصيّ، ودعِا (٤٤).

ــ وتمال فيما لحقته ألف زائدة للتأنيث أو غيره، نحو: حُبلِى، ومعزِى، والضُّحِى .

ــ وتمال فيما كانت عينه ياءً أو واواً لدى بعض أهل الحجاز؛ إذ قرأ بعضهم: صِار، وخِاف .

ــ وتمال في وزن فاعل، نحو: كِاتب، وسِاجد، ومِاشٍ، ودِاع، وقد شُبّه به لدى بعض العرب: مررت بِابه، وأخذت من مِاله.

ويتحدث في الباب الثاني عن الإمالة لدى الكثير من العرب، فقد تقع في الضميرين (ها، نا) المتصلين بالمضارع، نحو: يريد أن يضربهِا، ويريد أن ينزعهِا، أو المتصلين بغير الفعل من أسماءٍ وحروف، نحو: من مضربِهِا، وبهِا، وبنِا. وهذه الإمالة مقصورة على ما اتصل بالمنصوب أو المجرور، أما الضمير المتصل بالمرفوع فلا إمالة فيه، نحو: مضربُها ويكيلُها .

وقد تقع الإمالة في الكلمة الواحدة إذا كان فيها ياء وبعدها حرف واحد ثم الألف، نحو: يدِا، أو كان فيها حرف مكسور، فَصَلَ بينه وبين الألف حرف آخر، نحو: عِدِا، وذِهِا، من "ذه". وهذه الإمالة كما سبق أن أشرنا ليست مطردة عند العرب، فبعضهم يميل وبعضهم يترك الإمالة. وقد عبر سيبويه عن ذلك بقوله: "واعلم أنَّهُ ليس كُلّ من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممّن يُميل، ولكنه قد يخالِف كُلُّ واحدٍ من الفريقين

٤٤ــ الأصل في الياء المشددة ألف وياء؛ أي: مَعدايٌ، ومسنايٌ، وعُصايٌ. أُميلت الألف فقلبت ياءً وأدغمت في الياء الثانية انظر الكتاب ٤:١١٨ــ١١٩.

صاحبه، فينصبُ بعضٌ ما يُميلُ صاحبُه ، ويُميل بعضٌ ما ينصب صاحبُه..."[٤٥] والمقصود بالاطراد الذي ذكرناه في العنوان هو الاطراد أو القياس عند من يميل فقط.

٢ــ الإمالة الشاذة: وعقد لها سيبويه باباً سمّاه "باب ما أُميل على غير قياس وإنما هو شاذ"[٤٦]، وذلك نحو: الحجّاج إذا كان اسماً للرجل، حيث أمالته العرب لأنّ الإمالة كثيرة لديهم، وكذلك: النِّاس وهذا بِاب ومِال ....

٣ــ امتناع الإمالة [٤٧]:

١ــ هناك أحرف سبعة تمتنع الإمالة معها هي: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والغين، والقاف، والخاء. وسبب منع الإمالة معها أنها حروف مستعليةٌ تميلُ إلى الحنك الأعلى، وكل من يميل الألف معها لا يؤخذ بعربيته على حد تعبير سيبويه. ويمكن إجمال قاعدة هذه الأحرف فيما يلي:

أــ مجيئُها بعد الألف: إذا أتى حرف منها بعد الألف امتنعت الإمالة، نحو: عاصم، وعاضد، وعاطس، وعاظل، وواغل، وناقد، وناخل .وإذا أتى حرف منها بعد الألف مفصولاً عنه بحرف امتنعت إمالته أيضاً، نحو: نافخ، ونابغ، ونافق، وشاحط، وناهض، وناشط؛ أو إذا كان مفصولاً عنه بحرفين نحو: مناشيط، ومنافيخ، ومعاليق، ومقاريض، ومواعيظ، ومباليغ ...

ب ــ مجيئُها قبل الألف: إذا أتى حرف من هذه الأحرف قبل الألف مباشرة؛ امتنعت الإمالة، نحو: قاعِد، وغائب، وخامِد، وصاعد وطائف، وضامن، وظالم .

أما إذا كان بين أحد هذه الأحرف وبين الألف حرفٌ واحد فلا تمتنع الإمالة، على أن يكون الحرف (من هذه الأحرف) مكسوراً، نحو: الضِّعِاف، والصِّعِاب، والطِّنِاب، والقِباب، والخِباث، والغِلاِب .

وكذلك إذا كان أحدها ساكناً مفصولاً عن الألف بحرف لا تمتنع الإمالة، نحو:

٤٥ــ الكتاب، ٤:١٢٥ .

٤٦ــ نفسه ٤: ١٢٧.

٤٧ــ انظر: نفسه ٤: ١٢٨، وما بعدها .

مِطْعِان، ومقْلِت، ومِصباح [٤٨].

٢ــ ومما لا تُمال ألفه مع غير هذه الأحرف ألف فاعِل ومُفاعل من المضعَّف؛ لأن الحرف الذي قبل الألف مفتوح، نحو: جَادٌّ، وقادٌّ، ومُجادٌّ [٤٩].

٣ــ لا تُمال الألف التي مع الحروف، نحو: حتَّى، وعلى، وإلى، وأمّا ...، ولكنهم أمالوا "يا" في النداء فقالوا: يا زيد. وكذلك أمالوا أنِّى، وبِا، وتِا. وهذا جائز إذا أُمِنَ اللّبس كما يفهم من عبارة سيبويه [٥٠].

٤ــ حرف الراء والإمالة: للراء عند سيبويه أحكام تحدث عنها في بابين، الأول: "بابُ الراء" [٥١]، والثاني: "باب ما يُمال من الحروف التي ليس بعدها ألف إذا كانت الراء بعدها مكسورة "[٥٢]. فالراء تشبه الحرف المضعَّف، وهي بمنزلة الحروف التي تمتنع معها الإمالة، وأحياناً يُمال معها غيرُ الألف، ويمكن تصنيف الإمالة معها على النحو التالي[٥٣]:

١ــ إذا كانت الراء قبل الألف تمتنع الإمالة، نحو: هذا راشد، وهذا فِراش. وبعض العرب يُميلها فيقول: عِفرا، وعيرا.

٢ــ إذا أتت الراء قبل الألف وفُصلت عنه بحرف امتنعت الإمالة، نحو: بِرقان .

٣ــ إذا كانت الراء بعد الألف لا تُمال الألف في حالتي: ضَمِّ الراء وفتحها (رُــرَ)، نحو: "هذا عَارٌ " و"رأيت العارَ"، أما في حالة كسر الراء (رِ) فلا تمتنع الإمالة، نحو: مِن عِوارِه، وهذا قِارِب، ومِن المُعارِ.

٤ــ إذا كانت الراء بعد الألف مفصولة عنه بحرف جاز فيها الإمالة، نحو: الكِافِر، والمنابِر، وعدمُها عند البعض، نحو: الكافر. والذين يميلونها عند اجتماعها مع الألف، نحو: (قارب)؛ لا يميلونها إذا فُصِلَتْ عنه، نحو: (قادِر)؛ لأنها بَعُدَت، فلم تقو على الإمالة.

٤٨ــ الكتاب ٤: ١٣٠ – ١٣١.

٤٩ــ نفسه ٤: ١٣٢.

٥٠ــ الكتاب ٤: ١٣٥.

٥١ــ الكتاب، ٤:١٣٦.

٥٢ــ نفسه، ٤:١٤٢.

٥٣ــ الكتاب ٤: ١٣٦ – ١٤٤ .

٥ــ إذا أتت الراء مُضعفّه بعد ألف تُمال عند بعضهم، نحو: مررت بفِارّ، وهذه صعِاررٌ، وتترك عند آخرين .

٦ــ تمال بعض الحروف التي ليس بعدها ألف بسبب وجود الراء، وذلك إذا وقع الحرف قبل راءٍ مكسورة في كلمة واحدة، نحو: مِنَ الكِبِر، ومن الصِّغِر؛ أو في كلمتين، نحو: رأيت خَبَطَ الرِّيف. وقد تُمال فاء الكلمة إذا كانت عينُها ساكنةً ولامُها حرف راء، نحو: مِن عَمْرٍو، وهذا الكُفْر.

٧ــ تمتنع الإمالة مع الراء إذا كان بعد الراء حرفٌ من حروف الاستعلاء (خ ص ض ط ظ غ ق)، نحو: مِنَ الشَّرِق.

ثالثاً ــ ظاهرتا الإعلال والإبدال :

وهما مصطلحان مستخدمان في كتب الصرف العربي، يرجعان في أساسهما إلى ظاهرة صوتية تحكمها قوانين دقيقة، الغاية منها التجانس بين أصوات الكلمة الواحدة. وهما وإن عبّرا عن ظاهرة واحدة هي التجانس الصوتي فإن كلاًّ منهما يختلف عن الآخر اختلافاً واضحاً .

فالإعلال هو ما تتعرّض له أصوات العلة من تغيرات قد تؤدي إلى حلول بعضها مكان بعض، أو حذف بعضها أو نقل حركته إلى غيره. أما الإبدال فهو أعم من ذلك وأشمل، حيث يراد به جميع حالات التبادل بين الأصوات، سواءٌ أكانت صحيحة أم معتلة، ويعمد المتكلم فيه لحذف صوت من الكلمة والمجيء بآخر مكانه .

وقد تناول سيبويه هاتين الظاهرتين في كتابه، ولكنَّ حديثه عنهما لم يكن ليختلف عن الظاهرتين السابقتين، من حيث الترتيب والتصنيف والتبويب، كما لم يكن ليخرج عن إطار الخلط بين الدرس الصوتي والدرس الصرفي لدى القدماء جميعاً. ويمكن تلخيص حديثه عنهما بما يلي :

أــ الإعلال: الإعلال عند سيبويه كما هو عند الصرفيين جميعاً يكون بالحذف والنقل والقلب .

١ــ الإعلال بالحذف[٥٤]: كحذف الواو من المضارع والأمر والمصدر في مثل: يَعِدُ،

٥٤ــ انظر :الكتاب ٤:٥٢، ٢١٩.

عِدْ، عِدَة، زنة ...، وحذف الواو والياء من اللفيف المفروق في مثل: يشي، ويقي، وقِه، وشِه. وهناك حذف في بعض الأسماء وهو حذف سماعي كما يرى سيبويه، مثل: يد ودم وحِرٌ وسَتٌ ودَدٌ....

٢ــ الإعلال بالتسكين والنقل[٥٥]: ويقصد به سيبويه حذف حركة المعتل أو نقلها إلى الصحيح قبله، والغاية من ذلك تخفيف النطق والبعد عن التنافر والثقل الصوتي، ويُشترط في نقل الحركة أن يكون الصحيح الذي تنقل إليه الحركة ساكناً، نحو: يبيع، ويقول، ومهيب، ومبيع ...فأصلها: يَبْيِعُ، ويَقْوُلُ، ومَهْيِب، ومَبْيِع.

٣ــ الإعلال بالقلب :

أــ قلب الواو والياء ألفاً [٥٦]: فالياء والواو إذا تحركتا وانفتح ما قبلهما فتحة أصلية اعتلتا وقلبتا ألفاً، نحو: تاه، وطاح، وغزا، ورمى....

ب ــ قلب الواو ياءً [٥٧]:وذلك إذا سكنت بعد كسرة، نحو: ميزان، وميعاد، أو إذا اجتمعت مع الياء، نحو :سيّدٌ وصيّبٌ، أو إذا كانت رابعة وأكثر، نحو: أغزيت وغازيت، أو إذا كانت لاماً في اسم على وزن فعلى، نحو: الدنيا، والعليا...

ت ــ قلب الياء واواً [٥٨]:وذلك إذا سكنت بعد ضمة، نحو: موقن وموسر، أو إذا كانت لاماً في اسم على وزن فَعلى كالشّروى والتّقوى، أو إذا كانت عيناً، نحو: الطوبى والكوسى من الطيب والكياسة .

ث ــ قلب الواو والياء همزة [٥٩]:وذلك إذا تطرفتا بعد ألف زائدة، نحو: قضاء وسقاء، أو إذا وقعت إحداهما عيناً لاسم الفاعل، نحو: بائع وخائف، أو إذا وقعت إحداهما بعد ألف فعائل، نحو :عجائز، وصحائف، أو إذا كان في الكلمة حرفا لين بينهما الألف، نحو: قوائل، وأوائل .

والحديث عن الإعلال يطول في الكتاب، وهو متناثر هنا وهناك، وربّما كان مفتقراً إلى المنهج في كثيرٍ من مواطنه.

٥٥ــ انظر: مواضع ذلك في الكتاب ٣٣٩:٤.

٥٦ــ انظر مواضع هذا القلب في الكتاب ٤: صفحات: ٣٤٤، ٣٤٩، ٣٥٤، ٣٨٣، ٣٩٠.

٥٧ــ انظر مواضع هذا القلب في الكتاب ٤: صفحات: ٣٣٥، ٣١٤، ٣٦٠، ٣٦٢، ٣٦٥، ٣٨٩، ٣٩٣.

٥٨ــ انظر مواضع هذا القلب في الكتاب ٤: صفحات: ٣٨٩، ٣٦٤، ٤٢١.

٥٩ــ انظر مواضع هذا القلب في الكتاب ٤: صفحات: ٣٤٨، ٣٦١، ٣٧٠.

ب ــ الإبدال :

درس سيبويه الإبدال في "باب حروف البدل، من غير أن تدغم حرفاً في حرف، وترفع لسانك من موضع واحد، وهي ثمانية من الحروف الأولى، وثلاثة من غيرها"[٦٠]. ولكنه عندما تحدّث عمّا سماه حروف البدل لم يقف عند هذا العدد بل تعداه إلى حروف أخرى قد يكون سببها الوقف أو الإدغام أو اللهجات أو غير ذلك، ولم يفرق في حديثه عن الإبدال بين القلب الذي يكون سببه الإعلال وبين الإبدال[٦١]. ويمكن أن نقف في هذا الباب على إبدال الحروف التّالية:

فالهمزة عنده قد تكون بدلاً من الياء في الإعلال بالقلب، نحو: قضاء، وقد تكون بدلاً من ألف حمرى في حمراء، ومن ألف حبلى في الوقف، وقد تكون بدلاً من الهاء بعد الألف في ماء، وبدلاً من الواو نحو: أدؤر، وأسؤق عند من لا يحققون الهمزة، وكذلك تبدل منها نحو: أجوه في وجوه، وإسادة في وسادة.

والألف تبدل من الواو نحو ياجل من يوجل، وتبدل من الهمزة عند تخفيفها، نحو: راس في رأس، وباس في بأس .

والهاء تبدل من الهمزة نحو: هرقت وهمرت من: أرقت وأمرت، ومن الياء في اسم الإشارة هذه...

والجيم تبدل من الياء في الوقف عند بعض بني سعد، نحو علَجّ في عليّ، وتميمجّ في تميميّ .

والياء تبدل من الهمزة في التخفيف عند من لا يحققون الهمزة، نحو: مِيَرٌ في المِئَر، وتبدل من

الواو، نحو: بهاليل جمع بهلول، ومن الحرف المدغم كقيراط، ودينار لأن الأصل فيهما قِرَّاط ودِنَّار.

واللام تبدل من النون بشكل قليل، نحو: أصيلالٌ في أصيلان تصغير أصلان .

والنون تبدل من الهمزة في فعْلان فَعْلَى، نحو: عطشان وسكران ...

٦٠ــ الكتاب ٤:٢٣٧.

٦١ــ قارن مثلاً ص٣٤٨ من ج٤، حين يتحدث عن قلب الواو والياء همزة، وبين ص٢٣٧ من الجزء نفسه حين يتحدث عن إبدال الهمزة .

والطاء تبدل من التاء في افتعل إذا كانت الفاء ضاداً أو صاداً أو ظاءً أو طاءً، نحو: اضطهد واصطبر ...

والدال تُبدل من التاء في افتعل إذا كانت بعد الزاي، نحو: ازدجر، ومزدجر ...

والتاء تبدل من الواو إذا كانت بعد كسرة، نحو: اتَّعد، وتبدل في كلمات أخرى نحو: تُراث وتخمة واتكأت من توكَّأت...

والميم تبدل من النون نحو عمبر في عنبر، ومن الواو في كلمة فم ومن يا النداء في اللهمَّ .

والواو تبدل من الياء كما في الإعلال بالقلب وكما في فتوى جمع فتيان، وتبدل من الهمزة المبدلة من الياء أو الواو، نحو: كساوان وغطاوان.

هذا ملخص وجيز لحديث سيبويه عن الإعلال والإبدال. ولا شك في أننا نحترم آراء سيبويه ونجلها، ونقدر جهوده الجبارة، ولا سيما أنه كان رائداً في هذا المجال، شقَّ الطريق الوعرة وحاول أن يسهل للأجيال من بعده سبيل تناول اللغة. ولكنّ عمله لا يخلو من خلط كثير. فموقفه من حروف العلة قد ارتبط بشكل الكتابة، حيث كان لديه ثلاثة أحرف ترسم برموزها، وهي (الألف، والواو، والياء)، وفي نظره أنَّ الواو والياء يعبران عن أربعة أصوات هي (ياء المد، وياء العلة، وواو المد، وواو العلة). ولكنّ الحقيقة التي يُقرّها الدرس الحديث غير ذلك(٦٢).

فالواو والياء المعتلتان لا تكونان إلا حين تتراكب الحركات، فتنشأ الحركة المزدوجة التي تؤدي إلى وجود الصوت الانتقالي الواو أو الياء. أما أصوات المد نحو: (قامَ، يقوم، يقيم) فليست أصوات علة على الرغم من اتحاد رمزيْ الواو والياء، والتباسهما في الكتابة برمزي صوتي العلة، وإنّما هي حركات طويلة يمكن تجزئتها إلى حركات قصيرة. وقد لاحظ ذلك ابن جني حيث قال: "اعلم أنَّ الحركات أبعاض حروف المد واللين، وهي الألف والياء والواو، فكما أنّ هذه الحروف ثلاثةٌ فكذلك الحركات ثلاث ...ألا ترى أنَّ الألف والياء والواو اللواتي هنَّ حروفٌ توامٌّ كوامل،

٦٢ــ راجع حول ذلك فصلاً بعنوان: السواكن والعلل من كتاب دراسة الصوت اللغوي د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة ص١١٣ــ١٣٢.وانظر أيضاً "مناهج البحث في اللغة"، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضـــاء، ص١٤١ ومـــا بعدها.

قد تكون في بعض الأحوال أطولَ وأتمّ منهنَّ في بعض..."[٦٣].

وقد جعل سيبويه الهمزة مع هذه الأحرف الثلاثة في باب واحد مع أنه كان يدرك الفرق بينها وبين الألف من الناحية النطقية؛ حين وصفها وصفاً دقيقاً بقوله: "نبرة في الصدر تخرج باجتهاد، وهي أبعد الحروف مخرجاً "[٦٤]. ولكنه لم يستطع التخلص من ارتباط الهمزة بالألف، فهي حيناً حرف علة، وحيناً آخر شبيهة بالعلة مع أنها صوت صامت، وحيناً ثالثاً مخفّفة عند بعض القبائل، وحيناً رابعاً منقلبة عن صوت آخر ...

ولا بدَّ للباحث هنا من معرفة طبيعة الهمزة من الناحية الصوتية ليُدرك مدى دقّة كلام سيبويه في ربطها بأحرف العلة. فهي صوت يخرج من الحنجرة نتيجة انغلاق الوترين الصوتيين تماماً، ثم انفتاحهما في صورة صوتية بين الجهر والهمس، وهي من الصوامت[٦٥] أمّا أصوات العلة فهي انطلاقية تخرج من الفم بعيداً عن الحنجرة والحلق واللهاة، وهي مجهورة[٦٦]. أضف إلى ذلك أنّ حرفي العلة (الواو والياء) يختلفان عن الهمزة، لأنّ الهمزة صوت صامت مستقل، وهما صوتان مركبان انتقاليان؛ وبالتالي فلا علاقة صوتية بين الهمزة وبين أصوات المد والعلة. وهناك تباعد واضح ينفي وقوع الإبدال أو القلب بينهما والقول بحدوث الإبدال بين الهمزة وأصوات العلة قول خاطئ لا تؤيده الحقيقة العلمية ولا الصوتية للبعد بينهما؛ لأنّ الإبدال –بشكل عامـ يحدث على أساس التقارب بين الأصوات المتبادلة، وهذا التقارب لا يقوم إلا على أساسين من أسس الدراسة الصوتية :

الأول: هو أنّ كلا الصوتين المتبادلين من الصوامت؛ التي تتميز بطبيعة مشتركة تقوم على اعتراض طريق الهواء المندفع من الرئتين إلى خارج الفم. في حين نرى أن الحركات أو أصوات العلّة تتكوّن دون هذا الاعتراض .

الثاني: أن الصوتين المتبادلين كليهما متحدان أو متقاربان في المخرج؛ الذي هو مكان اعتراض الهواء بعد خروجه من الرئتين. فإذا توفر للصوتين هذان الأساسان من

٦٣ـ سر صناعة الإعراب لابن جنّي، تحقيق لجنة من الأساتذة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩:١ـ٢٠.

٦٤ـ الكتاب، ٣:٥٤٨.

٦٥ـ انظر: علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، د. محمود السعران، دار الفكر العربي، ص١٥٧ وما بعدها.

٦٦ـ انظر: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص٩١ وما بعدها.

القرابة الصوتية احتمل أن يحلّ أحدهما مكان الآخر، وإلاّ فلا .

وبناءً على ما تقدّم نستطيع أن نقرر :

١ــ الأصل الغالب في الوقف هو السكون، ولا يوقف على متحرك (مقطع مفتوح). ومع أنّ سيبويه قرر الوقف في الكلام لكنه لم يطبقه تطبيقاً صحيحاً؛ لأنه اعتبر حروف المد والعلة صوامت لا حركات. ولئن جاز ذلك بالنسبة إلى حروف العلة التي هي أنصاف حركات (الفتحة والضمّة والكسرة)، فإنه لا يجوز بالنسبة إلى حروف المد.

٢ــ إذا كان سيبويه قد نص على أنه لا يُبدأ بصامت بل بمتحرك فقد أغفل النص على أنه لا يُبدأ بحركة في الكلمة أو المقطع؛ لأنه لم يمنح الحركة وجوداً مستقلاً عن الصامت بل تصورها دائماً تابعة له، وأخرج حروف المد والعلة من جملة الحركات، وهي في طبيعتها تكبير للحركات، وتركيب لا يُستساغ في بدء المقطع إلا بشروط خاصة، ولذلك رفضت اللغة الضمة إثر واو والكسرة إثر واو أو ياء.

٣ــ من المعروف أن العربية تكره النطق بمقاطع مفتوحة متوالية، ولا تعرف ظاهرة توالي الصوامت (السكون) في المقطع كما في اللغات الأوروبية. وبالتالي فهي ترفض توالي الحركات الكثيرة؛ لأن هذه الحركات تضعف النظام المقطعي كما يرى المحدثون[٦٧]. أما سيبويه فيراها تجعل النطق ثقيلاً .

٤ــ إن التحليل الصوتي للكلمات المهموزة يقودنا إلى وظيفة الهمز في العربية، فهو وسيلة للهروب من تتابع الحركات عماده تكوين مقطع عربي سليم من جهة، وهو صورة من صور النبر من جهة أخرى، وسنرى بعد ذلك أن معظم الإبدال عند سيبويه هو من قبيل المماثلة الصوتية .

رابعاً ــ ظاهرتا المماثلة والمخالفة :

أ ــ المماثلة :

هي مجموعة التعديلات التكيفية للصوت بسبب مجاورته لأصوات أخرى، فتتحوّل

٦٧ــ انظر: المنهج الصوتي للبنية العربية، د. عبد الصبور شاهين ،مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ص١٧٤.

الفونيمات المتخالفة إلى متماثلة جزئياً أو كلياً[٦٨]. وأساس هذا التحول هو الاتفاق في المخرج أو الصفة أو فيهما معاً، فتتغير مخارج بعض الأصوات أو صفاتها ليحدث نوع من التوافق، والانسجام بعد شدّ وجذب .

والمماثلة هي الرديف المقابل لما سمّاه سيبويه الإدغام، وهو عنده ظاهرة موقعية سياقية مرتبطة بمواقع محددة، يلتقي في كل منها صوتان السابق منهما ساكن أو مُسَكَّن والتالي متحرك، ولا بُدّ لإدغامهما من تحقيق شروط أو صفات خاصة. وهذه الدراسة عنده بعيدة عن اعتبار الإدغام جزءاً من النظام الصوتي، مع أنه اهتم بهذه الظاهرة ومهّد لها بحديثه عن الأصوات المفردة .

وللمماثلة أنواع فقد تكون كلية أو جزئية وقد تكون تقدمية أو رجعية. وسوف نحاول أن نجمع تحت هذه الأنواع ما جاء في كتاب سيبويه مع ملاحظة أنّه استخدم لهذه الأنواع مسمّيات مختلفة ودرسها جميعاً تحت عنوان واحد هو الإدغام الذي قسمه إلى إدغام في المتماثلين، وفي المتقاربين، وفي حروف طرف اللسان والثنايا، وإلى مضارعة وقلب وتخفيف.

١ ــ **المماثلة الكلية التقدمية** : وهي أعلى درجات المماثلة، وفيها يتحد الصوتان المتتابعان في صوت واحد مشدد، ويؤثر الصوت الأول في الثاني ويجعله مثيلاً له إن لم يكن كذلك، فيحدث الإدغام. وقد درس سيبويه هذه المماثلة في أماكن متفرقة من كتابه، منها "باب الإدغام في الحرفين اللذين تضع لسانك لهما موضعاً لا يزول عنه[٦٩]، ووضع لهذا النوع عللاً وأصولاً تعود إلى ظاهرة كراهية التقاء الأمثال؛ لأن العربي يكره توالي الحركات في كلامه ويرفضها في الكلمة الواحدة إذا زادت حركاتها على أربع حركات. ويرى أن هذا النوع يحدث في الكلمة الواحدة كما يحدث في الكلمتين المتواليتين اللتين يكون المثلان فيهما آخر الكلمة الأولى وأول الكلمة الثانية، ويمكن تقسيم هذا الباب عنده إلى الأقسام التالية [٧٠]:

١ــ إذا توالت خمسة حروف متحركة وكان الثالث والرابع مثلين سُكِّن الثالث

٦٨ــ انظر: دراسة الصوت اللغوي، ص٣٢٤.

٦٩ــ الكتاب ٤:٤٣٧.

٧٠ــ انظر هذه الأقسام في الكتاب ٤: ٤٣٧ وما بعدها

وأُدغم في الرابع، وهذا النوع أحسن حالات الإدغام كما يرى سيبويه، وتحريكه وبيانه عربيٌّ جيد وحجازيٌّ، نحو: جعلَّلَك في "جَعَلَ لك" وفَعَلَّلبِيد في "فَعَلَ لَبيد".

٢ــ إذا التقى المثلان وكان أولهما مسبوقاً بحرف متحرك واحد وتُلِيَ الثاني بساكن أصبح الإدغام حسناً، نحو: يَدّ داود في "يَدُ داود".

٣ــ إذا التقى المثلان المتحركان وكان قبل أولهما حرف مد كان الإدغام حسناً والبيان أحسن، نحو: إنّ المالّك في "إن المالَ لك"، وأنت تظلمينّي في "أنتِ تظلمينني". وذلك لأن حرف المد عند حدوث المماثلة (الإدغام) يكون بمنزلة المتحرك، ويرى سيبويه أن الواو والياء عند سكونهما تعاملان معاملة واو المد ويائه.

٤ــ إذا التقى المثلان المتحركان وسبق أولهما بساكن امتنع الإدغام، نحو: ابنُ نوحٍ، واسْمُ موسى.

٥ــ إذا كان أول المثلين واواً بعد ضمة أو ياءً بعد كسرة (ــ وو، ــ ي ي) امتنع الإدغام وتُرك المدُّ على حاله في الانفصال، نحو: ظلموا واقداً، واظلمي ياسراً .

٦ــ إذا كان أول المثلين واواً ساكنة أو ياء ساكنة لا يمتنع الإدغام؛ لأن الياء والواو ليستا حرفي مد هنا، نحو: اخشيَّاسراً واخشوَّاقداً، في "اخشَيْ ياسراً، واخشَوا واقداً ".

٧ــ ما يجري مجرى المنفصلين لا يجوز فيه الإدغام وإنما الإظهار، نحو: اقتتلوا ويقتتلون، وقد أدغم بعض العرب، فقال: اقتَّلوا ويقتّلون .

ولا يقتصر هذا النوع من المائلة على الصوتين المتماثلين بل قد يتتابع صوتان مختلفان لكنْ متقاربان في المخرج. ولكي يتمَّ الإدغام أو المماثلة الكاملة لا بد من تحقيق المماثلة بين الصوتين المراد إدغامهما، وتسكين الصوت الأول إذا لم يكن ساكناً. ونرى ذلك عند سيبويه في باب إدغام المتقاربين[٧١] نحو: امدح عرفة= امدحَّرفة، ومُثْتَرِد= مُثَّرِد، ومصتبر← مصطبر= مصَّبر، ومزتان← مزدان= مزَّان، واضتجر← اضطجر= اضّجر، ومظتلم← مظطلم= مُظَّلم. وخبطت=خبطٌ، واذتكر← اذدكر= اذّكر.

٧١ــ الكتاب، ٤٤٥:٤.

وهناك مماثلة كلية تقدمية في حالة انفصال تتأثر فيها الحركات[٧٢]. فحركة الضّمائر في ضمير النصب والجر الغائب المفرد المذكر (ـــهُ) والجمع المذكر (ـــهُم) والجمع المؤنث (ـــهُنَّ) والمثنّى (ـــهُما) تتأثر بما قبلها من كسرة طويلة أو قصيرة أو ياء فتقلب الضمة كسرة بعد كسرة أو ياء، وقد حافظت القبائل الحجازية على هذا الأصل في نطقها، نحو: مررت بِهُو قبلُ، ولديهُو مال تصـــبح: بِهِ، ولديهِ، ومنهُم ←مِنْهِم، وفيهُ ← فيهِ. ويمكن أن نلاحظ هنا أيضاً تأثير الضمة على الواو وتولّد الواو من هذه الضمة بعد الإشباع، وتكسر الهاء لأن قبلها كسرة حيناً، نحو: بِهِي، وبدارِهِي، وياء حيناً، نحو: لديهِي مال[٧٣].

وما تزال بقايا هذه الظّاهرة في القرآن الكريم رسماً وقراءةً. من ذلك قوله تعالى: «... ومن أوفى بما عاهد عليهُ اللهَ فَسَيُؤتيهِ أجراً عظيماً»[٧٤].

٢ـــ المماثلة الكلية الرجعية: وهذا النوع كسابقه يعتمد على الإدغام، ولكن الصوت الثاني هو الذي يؤثر قي الأول ويحوله إلى جنسه فيتحد به. ونجد هذا النوع عند سيبويه في بابين اثنين هما: "باب الإدغام في الحروف المتقاربة التي هي من مخرج واحد"[٧٥] و"باب الإدغام في حروف طرف اللسان والثنايا"[٧٦]، ولكن هذين البابين لا يخلوان من الخلط الكثير. إذ نرى فيهما مماثلة كلية تقدمية ورجعية، ومماثلة جزئية تقدمية ورجعية، ومخالفة أيضاً. ونستطيع أن نلخص وجهة نظر سيبويه فيهما على النحو التالي:[٧٧]

أـــ في باب المتقاربين:

١ـــ الميم والفاء والراء والشين تؤثر في مقارباتها التي قبلها فتُماثلها وتُدغم فيها،

٧٢ـــ انظر حول ذلك: التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص٢٥.

٧٣ـــ نظر باباً في كتاب سيبويه بعنوان: باب ثبات الياء والواو في الهاء الّتي هي علامة الإضمار، وحـــذفها، ٤:١٨٩ – ١٩٨.

٧٤ـــ الفتح ١٠

٧٥ـــ الكتاب ٤: ٤٤٥ .

٧٦ـــ نفسه ٤: ٤٦٠ .

٧٧ـــ انظر لما سيأتي من تمثيل: الكتاب ٤: ٤٤٥ ... ٤٧٦ .

نحو: اصْحَمَّطراً" في: "اصحب مطراً"، واذهفِّي في ذلك؛ في: "اذهب في ذلك"، ومَرَّأيت في: "مَنْ رأيت"، وأخرشَّيئاً في: "أخرجْ شيئاً" .

٢ــ مجموعة حروف تؤثر في مقارباتها تأثيراً رجعياً هي :

ــ الهاء والحاء (هــ + ح = حّ) نحو: اجبَهْ حَملاً = اجبحَّملاً .

ــ العين والحاء (ع + ح = حّ)، نحو: اقطعْ حملاً = اقطحَّملاً .

ــ الغين والخاء (غ + خ= خّ)، نحو: ادمَغْ خلفاً = ادمخَّلفــاً. و(خ + غ = غّ)، نحــو: اسلخ غنمك = اسلغَّنمك.

ــ القاف والكاف (ق + ك = كّ)، نحو: الحق كلدة = الحكّلدة. و(ك + ق = قّ)، نحو: انهك قطيناً = انهقَّطيناً.

ــ النون قبل اللام والميم والــواو واليــاء (ن + ل = لّ، ن+ م = مّ، ن+ و = وّ، ن+ ي= يّ)، نحو: منْ لك = ملَّك، من معك = ممَّعك، من وجد = مَوَّجد، مــن يكــون = ميَّكون .

ــ لام التعريف تتأثر تأثيراً رجعياً بالتاء والثاء والدال والذال والراء والزاي والسين والشين والصاد والضاد والطاءوالظاء واللام والنون، وتختفي معهن وتسمى لاماً شمسية، ولا تتأثر مع البواقي بل تظهر وتسمى قمرية. وقد أيّدت الدراسات الصوتية ما جاء به سيبويه، ولا اعتراض على كلامه إلا فيما يتعلق بصوت اللام في بداية كلمة يُراد تعريفها ككلمة (لوم) فسيبويه ينطقه باللام الشمسية التي تختفي اختفاءً تاماً، ولكنّ اللام هنا تظهر بكل خصائصها كما تظهر لام التعريف في كلمتي الباب والحكاية وغيرهما. وبالتالي فهي قمرية لا شمسية. وربما يعود سبب هذا الخلط عند سيبويه إلى أنّ الإدغام عنده مجرد نطق مضعف للأصوات الّتي يتناولها لا أكثر ولا أقل[٧٨].

ب ــ في باب حروف طرف اللسان والثنايا :

١ــ الطاء والتاء والذال والثاء والظاء تتأثر بالضاد اللاحقة لها وتتماثل فتصبح من جنسها ثم تدغم فيها، نحو: اضبطْ ضرمة = اضبضَّرمة، انعت ضرمة = انعضَّرمة،

٧٨ــ انظر: المنهج الصوتي للبنية العربية، ص٢١٢.

خُذْ ضرمة = خضَّرَمة، ابعث ضرمة = ابعضَّرمة، احفظ ضرمة = احفضَّرَمة[٧٩].

٢ــ الشين تؤثر تأثيراً رجعياً في الطاء والتاء والدال والضاد والظاء والذال والثاء لتي قبلها وتجعلها مدغمة فيها بعد التماثل، نحو: اضبط شاكراً = اضبشَّاكراً، انعت شاكراً = انعشَّاكراً، انقد شاعراً= انقُشَّاعراً، عارض شاعراً = عارشَّاعراً، احفظ شاعراً = احفشَّاعراً، خذ شاكراً = خُشَّاكراً، ابعث شاكراً = ابعشَّاكراً.

٣ــ الطاء تؤثر تأثيراً رجعياً في الدال والتاء والظاء التي قبلها وتجعلها مماثلة لها مدغمة فيها، نحو: انقد طالباً = انقطَّالباً، انعت طالباً = انعطَّالباً، احفظ طالباً = احفطَّالباً.

٤ــ الدال تؤثر تأثيراً رجعياً في التاء والذال والطاء التي قبلها، وتجعلها مماثلة لها ومدغمة فيها، نحو: انعت داود= انعدَّاود، خذ داود = خُدَّاود، اضبط داود = اضبدَّاود.

٥ــ التاء تؤثر تأثيراً رجعياً في الدال والثاء والطاء التي قبلها، فتتماثل معها وتُدغم فيها، نحو: انقد تلك = انقتِّلك، ابعث تلك = ابعتِّلك، انقط توأماً = انقتَّوأماً.

٦ــ الصاد تؤثر تأثيراً رجعياً في السين والتاء والذال والزاي التي قبلها فتتماثل معها وتدغم فيها، نحو: احبسْ صابراً=احبصَّابراً، انعت صابراً =انعصَّابراً، خذ صابراً = خُصَّابراً، أوجز صابراً = أوجصَّابراً .

٧ــ الزاي تؤثر تأثيراً رجعياً في الصاد والسين والطاء والظاء والذال التي قبلها، فتتماثل معها وتدغم فيها، نحو: افحص زردة = افحزَّردة، احبِسْ زردة = احبزَّردة، اضبط زردة = اضبزَّردة، احفظ زردة = احفزَّردة، منذ زمان = مزَّمان.

٨ــ السين تؤثر تأثيراً رجعياً في الصاد والزاي والتاء والدال والثاء والذال والظاء التي قبلها، فتتماثل معها، وتدغم فيها، نحو: افحص سالماً = افحسَّالماً، رُزْ سلمة = رُسَّلمة، ذهبت سلمى = ذهبسَّلمى، قدْ سمعت = قَسَّمعت، ابْعث سلمة = ابعسَّلمة، مُذ ساعة = مُسَّاعة، احفظ سلمة = احفسَّلمة.

٩ــ الظاء تؤثر تأثيراً رجعياً في الذال والثاء والطاء التي قبلها، فتتماثل معها، وتدغم فيها، نحو:خذْ ظالماً = خُظَّالماً، ابعث ظالماً = ابعظَّالماً، احبطْ ظالماً= احبظَّالماً.

٧٩ــ انظر الكتاب ٤: ٤٦٥ .

١٠ــ الذال تؤثر تأثيراً رجعياً في الظاء والثاء والدال التي قبلها، فتتماثل معها، وتدغم فيها، نحو: احفظْ ذلك = احفظَّلك، ابعث ذلك = ابعثَّلك، أبعِدْ ذلك = أبعِذَّلك.

١١ــ الثاء تؤثر تاثيراً رجعياً في الظاء والذال والتاء التي قبلها، فتتماثل معها، وتدغم فيها، نحو: احفظْ ثابتاً =احفظَّابتاً، خُذْ ثابتاً = خُثَّابتاً، انعت ثابتاً = انعثَّابتاً.

٣ ــ المماثلة الجزئية التقدمية (٨٠) :

وهذا النوع من المماثلة يتناول الصفة لا المخرج، وفيه يتطابق الصوت مع الآخر تطابقاً نطقياً لا مخرجياً. ونلاحظ هذا النوع عند سيبويه في باب البدل عندما تحدث عن إبدال الطاء من التاء في صيغة افتعل، إذا كانت الفاء ضاداً أو صاداً أو ظاءً أو طاءً نحو: اضطهد، واصطبر، واطّرد (وهنا المماثلة كلية وليست جزئية) واظظلم من اظتلم التي تتحول إلى مماثلة كلية تقدمية وتصبح (اظَّلم). وكذلك نلاحظ هذا النوع في صيغة فعلت، نحو: حِصْطُ وفحصطُ، من: حِصْتُ عنه، وفحصت برجلي، ومثل إبدال الطاء من التاء إبدالُ الدال من التاء أيضاً في هذه الصيغة إذا كانت بعد الزاي، نحو: ازدجر، ومزدجر، وازدان، من: ازتجر، ومزتجر، وازتان. وفي كل هذه الأمثلة مماثلة جزئية أثر فيها الصوت الأول في الثاني ليتناسبا ويتجانسا في النطق.

٤ــ المماثلة الجزئية الرجعية:

وهي التي يؤثر فيها الصوت الثاني في الأول، وقد تحدّث سيبويه عن هذا النوع في بابين من كتابه، الأول "باب الحرف الذي يُضارع به حرف من موضعه، والحرف الذي يُضارع بذلك الحرف وليس من موضعه"(٨١)، والثاني: "باب ما تقلب فيه السين صاداً في بعض اللغات"(٨٢). ومن الواضح أنَّ المصطلحات الحديثة تختلف عن مصطلحات سيبويه الذي دعا هذا النوع مضارعة. فالصاد الساكنة إذا كانت بعدها الدال يحدث فيها تماثل بتأثير الدال ويلحقها الجهر، نحو: مزْدَر في "مصْدر"، والتزْدير

٨٠ــ انظر أمثلتها في الكتاب ٤: ٤٦٧ – ٤٧٧.

٨١ــ الكتاب، ٤:٤٧٧ .

٨٢ــ الكتاب، ٤: ٤٧٩.

في "التّصدير" .. وقد شُبِّه بهذه الصاد الساكنة قبل الدال صادات متحركة لا تلحقها الدال نحو: مزادر في "مصادر"، وزراط في "صراط".

والسين إذا كانت قبل الدال تتأثر بها ويتغير صوتها للتماثل النطقي الرجعي، نحو: يزدُلُ ثوبه في "يسدل ثوبه". وقد تقلب هذه السين صاداً في بعض اللغات، وذلك إذا جاء بعدها القاف أو الغين أو الخاء، نحو: صُقْتُ في "سُقْتُ"، وصالغ في "سالغ"، وصلخ في "سلخ"، وقد تقلب صاداً لقُرب المخرجين والإطباق كصاطع في "ساطع".

والشين والجيم يتبادلان هذا التاثير عن طريق المماثلة إذا كانت الدال بعدهما، نحو: أجدق في "أشدق"، وأشدر في "أجدر"، واشتمعوا في "اجتمعوا".

ومثل ذلك صوت الباء الذي يؤثر في النون قبله فتصبح ميماً نحو: امبعث في "انبعث"، وعمبر في "عنبر"، وشمباء في "شنباء". وقد تحدث سيبويه عن ذلك في باب البدل وفي أبواب أخرى تتّصل بالإدغام [٨٣].

بـــالمخالفة:

"هي تعديل الصوت الموجود في سلسلة الكلام بتأثير صوت مجاور، ولكنه تعديل عكسي يؤدّي إلى زيادة مدى الخلاف بين الصوتين[٨٤]. وهي عكس المماثلة، ولكنها تحدث بصورة أقل منها. وقد تحدث سيبويه عن هذه المخالفة في باب يتصل بالإبدال عنده، سماه "باب ما شذّ فأُبدل مكان اللام الياء لكراهية التضعيف، وليس بمطرد[٨٥]، وذلك نحو: تسرّيت من تسرّرت، وتظنّيتُ من تظنّنت، وتقصّيت من القصة...

وقد تكون هذه المخالفة عند سيبويه في التخفيف غير المطرد، وتحدّث عن ذلك في "باب ما كان شاذاً مما خفّفوا على ألسنتهم وليس بمطّرد[٨٦]، نحو: سِتٌّ من سِدْسٌ، ووَدٌّ عند تميم ووَتِدٌ عند الحجازيين، وأحست من: أحْسَسْتُ، ومَسْتُ من: مَسَسْتُ، وظَلْتُ من: ظَلِلْتُ، واستخد من: اتَّخذ، وطّجع من: اضطجع، ويستيع من: يستطيع، وبلعنبر من: بني العنبر، وبلحارث من: بني الحارث، وعلماء من: على الماء.

٨٣ــ انظر: الكتاب، ٤:٢٤٠، ٤٥٣.

٨٤ــ دراسة الصوت اللغوي ص ٣٢٩، وانظر أيضاً البحث اللغوي عند العرب د أحمد مختار عمر ص١٣٤.

٨٥ــ الكتاب ٤:٤٢٤، وانظر أيضاً التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، د. رمضان عبد التواب ص٤٠.

٨٦ــ الكتاب ٤:٤٨١.

الخاتمة ونتائج البحث :

يتبين ممّا سبق أنّ سيبويه كان أحياناً يصرّح بالظّاهرة اللغويّة، وأحياناً أخرى يتركها على إطلاقها، وهذا كثير جدّاً في كتابه[٨٧]. كما كان يُكْثِرُ من الحديث عن اللهجات في أثناء تناوله الظّاهرة، مصرّحاً أحياناً بأنّ هذه الظّاهرة موجودة عند بعض العرب دون غيرهم[٨٨]. وهذا ما جعل ظواهره تحمل مادّةً ثريّةً جدّاً لدراسة اللهجات العربيّة. وأظنّ أنّ غايته من ذلك هي حرصُهُ الشّديد على تقديم اللغة في أدقِّ وصفٍ وأكمل وجه. وممّا يلاحظ عليه أنّه لم يضع مصطلحات تميز في وضوح قطاعات الأصوات، كما لم يميز بناء الكلمات عن بناء الجملة؛ لأنّ كل ذلك يدخل عنده في مجال واحد هو النحو. ولكنّ هذا لا يقلل من جهود سيبويه في دراسته الصوتية التي تأثر بها علماء اللغة على مدى قرون. فقد ظلَّ القدماء يدورون في فلكه، ويرددون عباراته ومصطلحاته، وتأثر بكتابه كُلّ من جاء بعده من النحاة واللغويين؛ لا في آرائه النحوية فحسب، بل في آرائه الصوتية كذلك، كالمبرد وابن جني والزمخشري، وشارح كتابه ابن يعيش، وغيرهم .

أما المحدثون فقد خالفوا سيبويه في بعض مواقفه، ولكن خلافهم يبقى خلافاً جزئياً، مجاله الواسع هو المصطلحات لا المادة، ومردّه البعد الزمني بينهم وبين سيبويه، وتقدم العلم والاستعانة بآلات إنتاج الأصوات والمخابر اللغوية وغير ذلك. فبقي الخلط أحياناً بين بعض هذه الأصوات .

ويبدو هذا جلياً واضحاً في أثناء حديثه عن الهمزة عندما جعلها مع أصوات المد والعلة في حقل واحد .

والحقيقة التي يستطيع الباحث أن يخُطّها هي أن سيبويه تناول الأصوات اللغوية من مبدأ صحيح، وهو دراستها دراسة وصفية تقوم على الملاحظة الذاتية والبعد عن الافتراض والتأويل .

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

٨٧ــ انظر مثلاً: الكتاب ٤: ١٦٣، ١٦٨، ١٧٣ ...

٨٨ــ انظر مثلاً: الكتاب ٤: ١٢٥، ١٤٠، ٤٣٧ ...

المصادر والمراجع

١ــ ابن جنّيّ، سرّ صناعة الإعراب، تحقيق لجنة من الأساتذة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر، الطّبعة الأولى، ١٩٥٤ م.

٢ــ ابن يعيش، شرح المفصّل، عالم الكتب بيروت، مكتبة المتنبّي القاهرة.

٣ــ حسّان، تمّام، مناهج البحث في اللغة، مطبعة النّجاح الجديدة، الدّار البيضاء، المغرب، ١٩٧٩ م.

٤ــ السعران، محمود، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، دار الفكر العربي، مصر، ط١، ١٩٩٢م.

٥ــ سيبويه، الكتاب، تحقيق السّيّد عبد السّلام محمّد هارون، عالم، الكتب، بيروت.

٦ــ عبد التّوّاب، رمضان، التّطوّر اللغويّ مظاهره وعلله وقوانينه، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرّفاعي بالرّياض.

٧ــ عبد التواب، رمضان، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط٢، ١٩٨٥م.

٨ــ عبد الصّبور شاهين، المنهج الصّوتيّ للبنية العربيّة (رؤية جديدة في الصّرف العربيّ)، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ١٩٨٠ م.

٩ــ عمر، أحمد مختار، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، الطّبعة الأولى.

١٠ــ عمر، أحمد مختار، دراسة الصّوت اللغويّ، عالم الكتب، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٩٧٦ م.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی